

المعرفي والايديولوجي في فكر محمد عابد الجابري

*The Epistemological and the Ideological in the Thought of
Mohammed Abed Al-Jabri*

جامعة وهران 2 محمد بن احمد – (الجزائر)

فلسفة

بصديق زهرة * bessedik zohra

zahrabessedik1989@gmail.com

جامعة وهران 2 محمد بن احمد – (الجزائر)

فلسفة

درقام نادية dergam nadia

philo.rumi2015@gmail.com

تاريخ النشر: 2025-12-31

تاريخ القبول: 2024-12-22

تاريخ الإرسال: 2024-11-07

ملخص:

إن البحث في قضايا التراث في الفكر العربي في المرحلة الراهنة من أهم المباحث التي شغلت اهتماما في مجال البحث العلمي على ساحة الفكر العربي المعاصر، حيث تناولت هذه الورقة البحثية موضوع جدلية المعرفي والايديولوجي في دراسة التراث عند محمد عابد الجابري الذي يمثل بمشروعه النهضوي أبرز هؤلاء الرواد والمفكرين الذين حاولوا تقديم إجابات واضحة حول إشكالية التراث. انفرد الجابري بالخوض بفكرة المشروع المعرفي والايديولوجي، التي شغلته طويلاً وأخذته إلى تحرير رباعيته في نقد العقل العربي، وبتوظيف عدة اشتغال منهجية مستقاة من مجال الدراسات الایستيمولوجية. الكلمات المفتاحية: المعرفي؛ الإيديولوجي؛ الجابري، الفلسفة العربية؛ التراث؛ العقل.

Abstract:

Researching issues of heritage in contemporary Arab thought is among the most important topics that have attracted significant attention in the field of scientific research within the sphere of modern Arab intellectual discourse. This paper addresses the dialectical relationship between the epistemological and the ideological in the study of heritage according to Mohammed Abed Al-Jabri, who, through his renaissance project, stands as one of the most prominent pioneers and thinkers seeking to provide clear answers to the problem of heritage. Al-Jabri uniquely engaged in developing the concept of the

* الباحث المُرسل: zahrabessedik1989@gmail.com

epistemological and ideological project, which preoccupied him for a long time and led him to produce his four-volume work *Critique of Arab Reason*, employing a methodological framework drawn from the field of epistemological studies.

Keywords: epistemological; ideological; Al-Jabri; Arab philosophy; heritage; reason.

1. مقدمة:

عرف الفكر الفلسفي في المغرب خلال الربع الأخير من القرن العشرين تطوراً كبيراً وحصول طفرة نوعية في المقاربات الفلسفية المغربية خاصة على مستوى المفاهيم والمواضيع والأطروحات. وهو الأمر الذي لا نستثني منه جهود محمد عابد الجابري في تطوير النظر الفلسفي في الفكر المغربي خاصة والفكر العربي عموماً وذلك من خلال بلورة مشروع فكري حضاري يرتبط بمسألة التراث والأصالة والمعاصرة.

كما ساهمت أبحاثه في مجال نقد العقل العربي إلى بناء جملة من المواقف تتعلق بنقد التراث ونقد العقل العربي. فموقف الجابري من التراث كانت بمثابة الإشكالية المرجعية الموجهة للبحث خاصة في مؤلفه نحن والتراث، فقد لجأ الجابري لقراءة التراث العربي الإسلامي كمنتج فكري تستمد منه الذات العربية خصوصياتها وتوظيفها في صنع تقدمها. فالإشكاليات التي يثيرها مشروع الجابري تعكس في نظرنا حيوية فكرية وتدفعنا إلى مزيد من تعميق النظر في قضايانا الفكرية من أجل محاربة تأخرنا التاريخية. فالدعوة إلى التراث من أجل النهوض بالعقل العربي بما يواكب تحديات العصر؛ من خلال هذه الورقة البحثية حاولنا صياغة سؤال مهم حول موقفه من مشكلة التراث. فما هي منطلقات الجابري الفكرية في معالجة قضايا الفكر العربي؟ ماهي العلاقة الموجودة بين المعرفي والإيديولوجي في قراءة التراث؟

سنحاول في هذا العرض إيجاد مدخل ملائم لتقديم عناصر وملاحظات في موضوع علاقة الإيديولوجي والمعرفي، ولهذا قبل التطرق إلى تعامل محمد عابد الجابري مع المضمون الإيديولوجي والمعرفي سنعرض الدلالات المعجمية الخاصة بكل من المفردتين: إيديولوجيا / معرفة، لأن الربط بينهما في هذا البحث يطرح إشكالا مركبا، فيجب تحديد مقارنته من زاوية قاموسية تعنى بالحمولة الدلالية المتنوعة لتأسيسها في ضوء معطيات الفكر العربي المعاصر، كل هذا سيتم في سياق الأهداف المتوخاة من المعارف في التاريخ، وأفضل مدخل لتحديد العلاقة بين الإيديولوجي والمعرفي هو تحليل معنى كل من اللفظتين

2. مقارنة لغوية واصطلاحية لمفهوم الإيديولوجيا:

يبدو أن مصطلح إيديولوجيا Ideology كلمة يونانية تتكون من مقطعين المقطع الأول Ideo ويعني الفكرة، والمقطع الثاني Logos يعني العلم، بالجمع بين المقطعين تصبح "علم الأفكار" (إيكن، 1963 ص 63).

وقد ابتدع هذا المصطلح دستو دي تراسي Destu de tracy للدلالة على الفلسفة التي تطرح جانبا من النظر الميتافيزيقي وتقتصر همها على دراسة المعاني لتبين خصائصها وقوانينها وعلاقتها بالإشارات المعبرة عنها، بالأحرى استكشاف أصلها، وهي نسق من الأفكار السياسية والخلقية والجمالية والدينية. (وهبة، 2007، ص 120) من هنا نستطيع القول أن الإيديولوجيا اتخذت معاني متعددة لكنها تعني بشكل عام علم دراسة الأفكار وخصائصها والبحث عن أصولها والمعتقدات والمواقف.

لقد ابتكر مصطلح الإيديولوجيا مجموعة من الفلاسفة الفرنسيين في أواخر القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر، أراد مفكروا التنوير هؤلاء أن يطبقوا المنهج العلمي الجديد على فهم العقل بتقديم أجوبة نفسية عن أسئلة فلسفة، وكانت الإيديولوجيا أي علم العقل دراسة أصل الأفكار وتطورها، وقد ظهر هذا المصطلح لأول مرة في اللغة الإنجليزية عام 1796 في ترجمة عمل أحد هؤلاء الفلاسفة وهو دستو دي ترسي. (موريس، 2010، ص 133).

عرف لويس ألتوسير L.Althusser 1970 مفهوم الإيديولوجيا بأنها أنظمة التمثيل التي تعيش فيها الناس علاقتها بالشروط الفعلية لحياتها، فالإيديولوجيا بعد لا يستغنى عنه في الحياة الإنسانية، إذ هي الوسيلة التي تم من خلالها إنتاج التجربة نفسها (موريس، 2010، ص 136). أي أنها مجموعة متماسكة من الأفكار والمبادئ التي تقدم لنا دليلا للعمل وفق هذه الأفكار التي يعتنقها مجموعة من الأفراد.

إن الإيديولوجيا ناتج عملية تكوين نسق فكري عام يفسر الطبيعة والمجتمع والفرد ويطبق عليها بصفة دائمة، وتشكل إيديولوجية لكل جماعة يبنها الجغرافية والاجتماعية ومعتقداتها السياسية ونواحي نشاطها، لذا فهي نسق من الأفكار والمعتقدات في مجتمع ما، أو هي الاتجاه الفكري الذي يتبناه الفرد أو المجتمع (الكافي، 2003، ص 80).

وقد جاء في كتاب عبد الله العروي "الإيديولوجيا العربية المعاصرة" أن اسم الإيديولوجيا (أدلوكة) تدل على ثلاثة أشياء أولا ما ينعكس في الذهن من أحوال الواقع انعكاسا محرفا

بتأثير لا واع من المفاهيم المستعملة، ثانيا: نسق فكري يستهدف حجب واقع يصعب وأحيانا يمتنع تحليله، ثالثا: نظرية مستعارة لم تجسد بعد كليا في المجتمع الذي استعارها لكنها تتغلغل فيه كل يوم أكثر فأكثر.

أما مصطلح المعرفة *La Connaissance*: فيشير هذا اللفظ إلى فعل المعرفة أو إلى الشيء المعروف ويشير أيضا إلى مجرد عرض شيء ما، أو إلى إدراكه وفهمه، أي هي نشاط الفكر الذي يثبت شيئا ما بالإيجاب أو السلب. (سعيد، 2004، ص 433)

-عرف الشيء أدركه بالحواس أو بغيرها، والمعرفة إدراك الأشياء وتصورها، ولها عند القدماء عدة معان: منها إدراك الشيء بإحدى الحواس ومنها العلم مطلقا، تصورا كان أو تصديقا، ومنها إدراك البسيط سواء أكان تصورا للماهية أو تصديقا بأحوالها، ومنها الإدراك الذي لكل معرفة، فكل علم معرفة، وليس كل معرفة علم (صليب، 1982، ص 193).

-ويعرف إبراهيم مذكور " المعرفة " في معجمه: "هي ثمرة التقابل والإتصال بين ذات مدركة وموضوع مدرك وتتميز من حيث أنها تقوم على التقابل والإتحاد الوثيق بين هذين الطرفين". (مذكور، 1983، ص 186-187)

-أما في كتاب " التعريفات " للجرجاني فالمعرفة ما وضع ليدل على شيء بعينه، وهي إدراك الشيء على ما هو عليه. (الجرجاني، 1985، ص 337)

إن الأغراض التي ننوي إنجازها لا تتطلب منا أن نكتب تاريخا جينيا لولوجيا للمعاني المتغيرة لكل من مفهوم الإيديولوجيا والمعرفة، وإنما هدفنا هو أن نبين حضور هذه المعاني في الفكر العربي عند محمد عابد الجابري وأن نبين الاستخدام والتوظيف التي عرفتهما المفردتين في قراءة التراث، ومن هنا نخلص إلى أن كلا المفهومين ارتبطا بتشكلهما بعملية التفكير ويعني هذا البحث برصد البعد العلائقي القائم بين الإيديولوجي والمعرفي، بحيث يحدد الزوجان (إيديولوجيا / معرفة) موضوعا مركبا ولا يمكن أن نتصور صعوبة الفصل بينهما، لأن الجمع بينهما في صيغة إشكالية تفيد موضوعا محددا.

إن التساؤل يكمن هنا حول مدى إمكانية الفصل بين الإستيمولوجي والإيديولوجي في الفكر الفلسفي الذي هو سؤال مشروع، والذي سنركز من خلاله على ظروف نشأته وفحص المقولات الفكرية التي انبنى عليها..

نخلص من خلال هذه المفاهيم إلى أن مفهوم الأيديولوجيا ارتبط في تشكله بالتفكير في الصراع التاريخي ودور الوعي في التاريخ، من جهة أخرى ارتباطه بالمجالات السياسية والدراسات الإنسانية، لكن مع ظهور التحولات المعرفية داخل العلوم الإنسانية والمنهجية ساهمت بدورها إلى إعادة قراءة وفهم لهذه الجدلية القائمة بين المعرفي والأيديولوجي، وبالتالي نحن نتصور هنا صعوبة الفصل بينهما، رغم وعينا بأن المعرفة يمكن أن تغيب الإطار الأيديولوجي، وفي الوقت نفسه تنقيد بالغائية الأيديولوجية بشكل من الأشكال .

المعرفي والأيديولوجي في فكر الجابري:

يعد جدل المعرفي والأيديولوجي واقع طبيعي داخل كل ثقافة حية، فطالما يوجد معرفة هناك أيديولوجيا خاصة وأن المعرفة تتعلق بالإنسان بشكل عام، فالعلاقة بينهما لا تنقطع، لأن الإيديولوجيا هي التي تؤطر المعرفة، فالأيديولوجية تنشأ وتعمل في المجتمع، وهي على صلة وثيقة بالنزعات والرغبات والمصالح الجماعية، وبالرموز والقيم والتطلعات التي تجعل الجماعات معنى حياتها التاريخي متعلقا بها، فالمواجهة بينها وبين العقل واقعة بالضرورة على نقاط أنشطة الإنسان التي يظهر فيها تأثير العقل، إلا أنها تفقد بذلك خصوصياتها، فالأيديولوجية تتعاطى مع العقل بمرونة، وأحيانا لا تكشف عن عقلانياتها حيث تستطيع إخفاءها (نصارا، 1994، ص 49). بهذا المعنى نجد أن الإيديولوجيا تتعلق بالعقل حيث يتخذ العقل فيها مكانة عالية، فالتفكير فيها هو تفكير في العقل ذاته، ونخص بالذكر هنا العقل العربي الإسلامي.

هذه العقلانية هي عقلانية منهجية والتي بدورها لا تنفصل عن الإيديولوجية باعتبارها تمثيلات للفرد أو الجماعة، بل هي بنية جماعية لا شعورية، وهكذا يتبدد مشروع الجابري حول علاقة المعرفي بالأيديولوجي فكل منهما شرط للآخر.

إن التعامل مع الإيديولوجي والمعرفي ومع العقلانية المعاصرة هو ما يعكسه كتاب "نحن والتراث" لمحمد عابد الجابري والذي جاء معبرا عن رؤية جديدة للتراث العربي والإسلامي، إننا هنا أمام وضع منهجية جديدة في البحث والقراءة وبهذا العمل تأتي أهميته في مشروع الجابري، لهذا سنحاول في هذا البحث الوقوف على أسس هذا المشروع، وتبيان مقدار التهافت الموجود فيها، ليتضح للقارئ ملامح هذا المشروع ومحدداته.

إن المتتبع لتطورات الخطاب الفكري العربي سيلاحظ أن الجابري يعتبر أحد المفكرين الذين تناولوا التراث العربي والفكر العربي الإسلامي تحت مشروع عنوانه "نقد العقل"،

خاصة تلك الطموحات الثقافية والفكرية والتي تحمل طابعا فلسفيا وتنظيريا للواقع العربي الإسلامي عبر جميع مراحلها، وخلاصة هذه الدعوة هي تجاوز التخلف الذي يوجد عليه العرب اليوم وتحقيق طفرة مأمولة نحو النهضة والتحرر والتقدم والتنمية، من هنا يمكن القول أن أحداث ثورة في العقل العربي ذاته والسعي إلى تحديث هذا العقل هو مقدمة وشرط ضروري لإيجاد الحلول اللازمة لمشكلات العرب، ومن ثمة الدعوة إلى تحديث العقل العربي عند الجابري هو قراءة جديدة للتراث العربي.

لقد اهتم الفكر العربي المعاصر بمسألة التراث والتي هيمنت عليه في الوقت الحاضر حيث ينظر لمفهوم التراث على أنه مفهوم ملتبس في الفكر العربي الحديث والمعاصر، والتباسه يأتي من كونه آلية. ذلك أن الوعي بتراث أية أمة يعين ويساعد على فهم واقعها المعاصر، فجّل المفكرين المعاصرين اتخذوا بناء المستقبل انطلاقاً من استيعاب الماضي والوعي بالحاضر، لهذا فهضة العرب لا تكون إلا بالتواصل مع تراثهم، فالتراث أصبح إشكالية لا تزال قائمة وتحتاج إلى مزيد من البحث والاجتهاد من أجل فهمها وتأويلها، هذه الإشكالية تتعلق بطبيعة العلاقة بين الماضي والحاضر، فالتراث مزال يقرأ أيديولوجيا وبعيون الحاضر. قراءات تحكمها منطق واحد هو الفصل والحصص. في سياق البحث عن قراءة جديدة وتحقيق نهضة خاصة بنا نجم تفكير نقدي للتراث، حيث شغلت هذه المسألة التراث بكل جوانبه، هذا المفهوم الذي اخترق بقوة الخطاب الفلسفي العربي خاصة المعاصر.

نفهم أن تراث أي أمة ليس سوى مجموعة تجاربها ومعطياتها ومكونات حياتها الشاملة وعوامل التأثير والصياغة في هذا الحياة. فالالتزام العلمي الواعي الموضوعي بالتراث بات ضرورة وخطوة أساسية لفهم حاضرننا ومستقبلنا (النفيسي، 1986، ص 13-14). من هنا تحول خطاب التراث إلى سلطة أيديولوجية مرجعيتها التراث نفسه للحكم على الحداثة. نجد عبد الإله بلقزيز يصنف الجابري ضمن مدرسة دراسات التراثية، حيث يعتبر أحد رمز هذه المدرسة الفكرية والثقافية التي تطرح أسئلة معرفية ذات نظرة مقارنة لدراسة النظام الفكري في المناخ العربي. (حساني، 2014، ص 209)

لقد أثار محمد عابد الجابري سجالات ونقاشات حول آرائه في النهضة والتراث والعقل العربي، فالقضية التي نظر فيها الجابري طويلا هي مشروع النهوض العربي، أو بالأحرى تحديث العقل العربي كمشروع، ومنه تبين المكانة التي يحتلها التراث في حياة الإنسان

اليوم، حيث تعامل مع مسألة التراث بوصفه قوة حاضرة لا تخرج عن حيثيات الحراك الإنساني الحاضر.

إن المشروع النهضوي العربي هو مشروع تاريخي طويل الأمد يجب أن يدرج حاجته الدائمة إلى التجدد والانفتاح عن كل تطوير يأتي به الفكر والتجربة، وبالتالي فهو مشروع أفكار أكثر مما هو مشروع بنود، مشروع توجهات عامة أكثر منه مشروع قرارات محدودة (زيادة، 2004، ص 141).

لقد حاول الجابري من خلال حملة دعوته إلى تحديث العقل العربي إضافة إلى الارتباط بين الإيديولوجيا وتحديث العقل، لكن هذه المرة على خلاف عبد الله العروي الذي تغيبه النظرة التاريخية، هذا الارتباط يكمن في موضوع التراث العربي الإسلامي، فهو يريد من خلال قراءته للتراث المساهمة في عمليات النهوض القومي العربي كما فعل ذلك الفارابي في وقته.

إن الهاجس الذي شغل فكر الجابري هو هاجس العمل على بلورة رؤية جديدة لتراثنا العربي الإسلامي باصطناع منهجية حديثة في الفهم والإفهام، وبهذا العمل تأتي أهميته في مشروعه لأنه في تصوره هو الحل الأمثل لإشكالية الأصالة والمعاصرة التي يعاني منها الفكر العربي ولم يتمكن من تجاوزها (الجابري، 2015، ص 08). من هنا يطمح الجابري لتجاوز المعادلة الصعبة الخاصة بإشكالية الحداثة والتقليد عن طريق عقلنة وفهمنا للدين وذلك بوسائل الفكر العربي باعتباره رافدا من روافد التراث بالإضافة إلى منجزات الفكر الحديث والمعاصر باعتباره هو الآخر وافدا وانتاجا انسانيا، ويعتقد الجابري أن مسألة التراث لها علاقة بالمعرفي والأيدولوجي بحيث تصبح هذه المسألة أيديولوجية من أجل تجاوز حاضر التخلف (الفقيه، دت، ص 310).

فالتراث في الفكر العربي المعاصر يعبر عن موروث وجداني وبطانة أيديولوجية وخزان ديني ومخيالي قوي، لذلك كان هذا التراث ومزال يحضر فينا ومعنا، فتراث الأمة العربية يصير المقوم الأساسي للنزوع الوحدوي لدى العرب في كل العصور، وهو يغذي هذا النزوع في العصر الحاضر بصورة أقوى؛ كما يمكن أن يكون التراث من عوائق النهضة والتقدم بدلا من الإبداع والتجديد، إذا تم التعامل مع التراث تعامللا لا تاريخيا أي يجعله في دائرة القداسة والأزلية، ومنه غياب الروح النقدية وفقدان النظرة التاريخية. (عدي، 2011، ص 63)

لذلك يجب اتباع طريقة جديدة في قراءة التراث، قراءة تتجنب تلك الآفات المنهجية، ألا وهي القراءة النقدية الشاملة، قراءة يختارها الجابري من أجل نقد العقل العربي ونقد طريقة الإنتاج الفكري والنظري، والتي تنتج عنها قراءة واعية تعيننا على السير في خطوات منهجية موضوعية صحيحة وسليمة، وتعطينا عناصر في الرؤية واضحة ومحددة.

"إن التساؤل حول إمكانية الفصل بين الأيديولوجي والأيدولوجي الفكر الفلسفي سؤال مشروع تماماً" (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص 10). فالتصور الكلي للأيدولوجي يثير مشكلة كثيراً ما تكشف النقاب عن جزء منها من قبل، لكنها الآن تكتسب أهمية أوسع، وهي مشكلة كيفية ظهور شيء مثل الوعي الزائف، أي الفكر المشوه والذي يزيف كل ما يقع في نطاقه. (مانهيام، 1980، ص 141) فالأيدولوجيا تتحول إلى وعي زائف لتبرير نقصها والتخلي عنها فيقول فهي جدران: "إن الدخول في دائرة الأيدولوجي معادل للخروج من دائرة العلم ومن دائرة الوقف والاتفاق" (توفيق، 2013، ص 140). ويقول الجابري في هذا الصدد: "نحن نؤكد مرة أخرى أنه أفضل ألف مرة أن نحاول قراءة تراثنا قراءة أيديولوجية تريد أن تكون واعية، من أن تستمر في قراءة أيديولوجية غير واعية، قراءة مزيفة مقلوبة." (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص 12)

ومنه نتساءل: إذا كان العامل الأيدولوجي عائقاً أمام حل مشكلة التراث هل أثمرت ونجحت القراءات التي تجردت منه و التي ادعت العلم والعقلانية والنقد؟ من أجل حل مسألة التراث يعتبرها الجابري قراءة وليس قراءات، قراءة وليست مجرد بحث أو دراسة، لأنها تتجاوز البحث الوثائقي والدراسة التحليلية، وتشرط وعياً وتأويلاً يعطي للمقروء معنى يجعله ذا معنى بالنسبة لمحيطه الفكري والاجتماعي والسياسي وأيضاً بالنسبة إلينا نحن القارئين؛ وهي قراءة معاصرة في نظر الجابري تتخذ وجهتين، قراءة تجعل المقروء معاصراً لنفسه من جهة، ومعاصراً لنا من جهة ثانية (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص 15-16). إن الانطلاق في البحث والتحليل لقضية التمييز بين ما هو أيديولوجي ونظري وسياسي هو ضرورة إعادة النظر في قضية الأصالة والمعاصرة في نظر الجابري، هي مشكلة الاختيار بين النموذج الغربي وبين التراث . يدعو الجابري في قراءته للتراث لإعادة تملكه وكشف حدوده وبيان محدوديته وذلك عن طريق الاستيعاب النقدي له، وهذا لا يكون إلا من خلال أعمال أدوات التحليل المعرفي

ومنهاجه في دراسة التراث وتحليل نصوصه ومنظوماته الفكرية، فرهانه هو رهان معرفي في المقابل غلب عليها منزع أيديولوجي صريح ومعلن- حسب الجابري- النظر إلى التراث بمنظار أيديولوجي. (بلقزيز، 2013، ص 09)

ويتحصل مما تقدم أن بناء رؤية فكرية عربية معاصرة فاعلة لا تتحقق في فكر الجابري إلا في إطار منهجية تستمد منطلقاتها العلمية والنظرية من علوم الإنسان والفلسفات المعاصرة، لأن قراءة التراث العربي والإسلامي تحتاج إلى أدوات ووسائل التحليل والتأويل والتركيب، شرط أن نكون على وعي تام بطرق تكييف تلكم الأدوات والمفاهيم في إضاءة تراثنا الفلسفي العربي (عدي، 2011، ص 62).

فمسألة التراث هي مسألة نهضة- تقدم- حادثة- تجديد- إذ أن أية أمة أو شعب أو حضارة لا تنهض إلا بمقوماتها ومنجزاتها، هذه المسألة - النهضة- تظل عند أستاذنا الجابري مسألة مضمرة.

وينجم عن هذا أن سؤال النهضة في نظر الجابري هو سؤال أيديولوجي مشروع، يقول الجابري: "السؤال النهضوي سؤال أيديولوجي مشروع إنه ليس سؤالاً علمياً يحلل الواقع من أجل الوصول إلى قانون يعبر عن ثوابته، بل هو سؤال ينشد التغيير ويشرع له في إطار حلم أيديولوجي (الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، 2016، ص 20). من هنا يتضح أن قراءة التراث تتأسس على طبيعة المنهج والرؤية والأدوات والوسائل والآليات لإيجاد العلاقة بين الاتصال والانفصال في الفكر العربي.

ومعروف أن هذه المبادئ والمفاهيم والآليات ليست فطرية ولا غريزية، وإنما يكتسبها الإنسان نتيجة احتكاكه بمحيطه، محيطه الطبيعي والاجتماعي والثقافي، ومن هنا أهمية خصوصية هذا المحيط في تشكل خصوصية الفكر، وهكذا فالفكر العربي ليس فقط لأنه تصورات أو آراء أو نظريات تعكس الواقع العربي أو تعبر عنه بشكل من أشكال التعبير، بل أيضاً لأنه نتيجة طريقة أو أسلوب في التفكير ساهمت في تشكيله جملة معطيات على رأسها الواقع العربي بكل مظاهر الخصوصية فيه (الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، 2016)

(53، 2013) حيث كان للأيديولوجيا حضورٌ متضخم، في حين ظهر الضعف الواضح في البنية المعرفية؛ يعيد ما سبق كتبه عن الفصل بين الأيديولوجي والمعرفي في مؤلفه "نحن والتراث" ويرى أنه من الناحية الإجرائية ما يزال صالحاً ذلك التمييز والفصل، ويقصد ما

بين المعرفي الذي ينتهي لعالم آخر اليوناني (العلم والميتافيزيقا) وهو يكتب عن الفلسفة في الإسلام وما بين التوظيف له، أي المضمون الأيديولوجي للواقع العربي الإسلامي. لعلنا هنا بحاجة إلى التساؤل حول نوع الإيديولوجيا التي اعتمدها الجابري في مؤلفاته، هل هي من نوع الأيديولوجيا المتمثلة بميول الباحث الثقافية، والإكراهات الاجتماعية والسياسية، والسلطات والمؤسسات التي تحدد مساحة المفكر واللامفكر فيه، وتملك سلطة الاعتراف بمعرفة معينة وتنزيلها منزلة العلم أو الاعلم؟ هل نتكلم عن أيديولوجيا لا مفر منها في كل بحث، يمكن للبحث الفكري أو العلمي أن يتعايش معها أو يستفيد منها أو يتحايل عليها ليحقق تقدمنا؟ أم أننا نتكلم عن أيديولوجيا مسبقة فرضها الباحث نفسه على وجهة وغاية ومنهج البحث؟. (قانصو، 2013، ص52-53)

ليس المهم طرح مجموعة قواعد إجرائية قابلة للتطوير والتعديل هادفة إلى دراسة معنى تصور أيديولوجي معين، ولكن المهم هو تجنب أن ينفصل الوعي المنهجي عن الوعي النظري المنتج، فالمعنى الحقيقي للمنهج ليس في المنهج نفسه. (نصارا، 1994، ص29)

من أجل تحقيق الموضوعية يؤكد الجابري على الطرح الأيديولوجي، هذا الطرح الذي يلعب دورا حاسما في قراءة التراث، ويقصد بهذا الطرح الكشف عن الوظيفة الأيديولوجية، الاجتماعية السياسية، التي أداها الفكر المعني، أو كان يطمح إلى أدائها داخل الحقل المعرفي العام الذي ينتمي إليه يقول الجابري: "إن الكشف عن المضمون الأيديولوجي للنص التراثي هو في نظرنا الوسيلة الوحيدة لجعله معاصرا لنفسه، لإعادة التاريخية إليه" (الجابري، التراث والحداثة - دراسات ومناقشات، 2015، ص32). إذا الطرح الأيديولوجي مرتبط بالتحليل التاريخي، لهذا فالمضمون الأيديولوجي هو وحده الذي له تاريخ لأنه يرتبط بالمجتمع .

إذن هناك ارتباط ما بين الأيديولوجيا والتغيير، ذلك أن الأيديولوجيا هي رفض للشكل الحالي للواقع وثورة ضده من أجل تغييره وتركيبه من جديد؛ لأنها إنما تركز على الحاضر لتدفع به نحو المستقبل، ولتدخل في صراع مع عناصر الواقع الحالي لتفككها أولا، ثم لتعيد بناءها وتركيبها من جديد، فالأيديولوجيا هي التي تصوغ التاريخ ولا يمكن فصل التنمية من حيث أهدافها وتصوراتها وعملياتها عن الإطار الأيديولوجي للمجتمع، لذا فالمطلوب من الأيديولوجيا اليوم أن تلعب دورها في التشريع للمستقبل (الباقى، 2010، ص116). وبالتالي الأيديولوجيا لها دور هام وقوة وفاعلية لتحقيق أهداف المجتمع

العربي، وتقديم الحلول من أجل استشراف لبناء حضاري متقدم؛ فالتعامل مع التراث لا يمكن أن يكون إلا أيديولوجيا وذلك بجعله معاصرا لنا وجعله يستجيب لحاجياتنا المعاصرة .

إن الحقل المعرفي الذي يتحرك فيه الفكر المعني يتكون من نوع واحد ومنسجم في المادة المعرفية، ومن شبكة من المفاهيم والتصورات والرؤى التي تشكل جهازا فكريا واحدا، أما المكون الثاني للمجال التاريخي للفكر هو المضمون الأيديولوجي (حامد،، 2017، ص 313). أما مسألة الأيديولوجيا تظهر جلية عند الجابري بما يسميه تحديد وظيفة المضمون أو المادة المعرفية في عصرنا، لكي يستجيب للتراث ويشرعن أفقا إصلاحيا أو نهضويا أو قوميا أو حداثويا أو انقلابيا أو أصوليا أو علمانيا، أو حتى سلفيا وهو توظيف يكفي دافعا ومحفزا ومسوغا لشتى أنواع التلاعب والتحوير والانتقاء والحذف والتأويل، ومنه نعيد تأويل وإنتاج تركيب المضمون التراثي بطريقة تتناسب مع وجهة نظر أيديولوجية معاصرة (قانصو، 2013، ص 54).

إن المجال التاريخي لفكر معين إنما يتحدد بشيئين إثنين - في نظر الجابري - هما :
*الحقل المعرفي: الذي يتحرك فيه الفكر الفلسفي في الإسلام والذي يتكون من نوع واحد ومنسجم من "المادة المعرفية" وبالتالي من الجهاز التفكير: مفاهيم، تصورات، منطلقات، منهج، رؤية...

*المضمون الأيديولوجي: الذي يحمل ذلك الفكر، أي الوظيفة الأيديولوجية (السياسية الاجتماعية) التي يعطيها صاحب أو أصحاب ذلك الفكر لتلك المادة المعرفية. (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص 34)

إن تصور الجابري لتاريخ الفكر ينطلق باعتباره وحدة إشكالية، من أجل ذلك يميز في التراث بين المحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي، فالعلاقة التي تقوم بين هذين المجالين تقوم على أساس إشكالية التمييز بين المشكلة والإشكالية بحث عند الجابري، يقول الجابري: "إن الإشكالية النظرية التي تؤسس وحدة الفكر هي أساسا إشكالية معرفية " (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص 34)

يميز الجابري بين محددين في قراءة التراث هما المجال المعرفي والمضمون الأيديولوجي فالتمييز بينهما في الفلسفة الإسلامية ضروري حتى يمكن أن نتبين فيها ما تزر به من تنوع

وحركة وتستطيع بالتالي ربطها بالمجتمع والتاريخ. "(الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص34)

كما يقرر الجابري خاصية أخرى تميز العلاقة بين الأيدولوجي والمعرفي داخل الإشكالية الواحدة وهي أنهما لا يتساوقان بالضرورة، بل إن ما يحصل غالباً هو أن يكون أحدهما متقدماً والآخر متأخراً، والذي يتقدم هو المضمون الأيدولوجي لا على المادة المعرفية فحسب بل كذلك على اللحظة ذاتها من التطور التاريخي الذي ظهرت فيه.

فعندما يتعلق الأمر بالفلسفة الإسلامية التي كانت ذات وضعية خاصة تختلف عن وضعية الفلسفة اليونانية والفلسفة الأوروبية الحديثة، فالفلسفة الإسلامية لم تكن قراءة متواصلة ومتجددة باستمرار لتاريخها الخاص، كما هو الشأن بالنسبة للفلسفات الأخرى، بل كانت قراءات مستقلة لفلسفة أخرى هي الفلسفة اليونانية، قراءات وظفت المادة المعرفية نفسها لأهداف أيدولوجية مختلفة متباينة".

لقد وضع الجابري الطرح الأيدولوجي في الصدارة منذ كتاباته الأولى في مقابل التحليل المعرفي، بحكم قدرته على فهم أفضل لخلفيات إسهام تراثنا وثقافتنا في تحريك التاريخ، وعلى إبراز الجانب الأصيل والإبداعي في الفلسفة العربية الإسلامية، فقد كان نقده للتحليل المعرفي موجهاً بجزء كبير منه للاستشراق بحكم أن الفلسفة العربية لم تضاف شيئاً للفلسفة اليونانية، وإنما كانت مجرد نقل لها على المستوى المعرفي، في الوقت نفسه عدم قدرة الاستشراق على رؤية الجديد في الفلسفة العربية، مما أسقطه في اللاتاريخية، والحل الذي يقدمه الجابري التوجه نحو الوظيفة الأيدولوجية التي قامت بها الفلسفة العربية الإسلامية (المصباحي، 1990، ص191)

يبحث الجابري فيما تبقى من الفلسفة العربية الإسلامية من خلال إيجاد العلاقة بين المحتوى، إن علاقة المحتوى المعرفي والمضمون الأيدولوجي في الفلسفة الإسلامية الذي نتج عنه أن فلاسفة الإسلام قد تعاملوا مع الفلسفة اليونانية بوصفها مادة معرفية، وأنهم وظفوا هذه المادة المعرفية لأغراض أيدولوجية؛ ولما كانت تلك المادة المعرفية قد ظلت هي إذ لم تتعرض لأي تغيير جذري لا في موضوعاتها ولا في مفاهيمها، فالتغيير يجب أن يلتمس في المضمون الأيدولوجي الذي وظفت فيه (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص11).

يرى الجابري أن المحتوى المعرفي في الفلسفة الإسلامية بل في كل فلسفة سابقة لمرحلتها المعاصرة يعتبر في معظمه مادة معرفية ميتة غير قابلة للحياة من جديد، فالفلاسفة الاسلاميون وفلاسفة القرون الوسطى قد أسسوا فلسفتهم على طبيعيات أرسطو، وبميلاد العلم الجديد، ينتهي المحتوى المعرفي لتلك الفلسفات، ذلك أن المحتوى المعرفي علم، والعلم له تاريخ، وتاريخ العلم كما قال باشلار تاريخ أخطاء العلم، ولذلك يموت المحتوى المعرفي في كل فلسفة موتة واحدة وإلى الأبد عندما يدخل التاريخ يدخله كأخطاء لا تاريخ له (الفقيه، دت، ص313)

أما بالنسبة للمضمون الأيديولوجي في الفلسفة فالأمر يختلف، فهي مادة قابلة للحياة من جديد، لأن الأيديولوجيا زمانها المستقبل، فهي تعيش مستقبلها في حاضرها، ولكن في صورة طموحات وأحلام، والحلم بطبيعته لا يعترف بالإطار الزمكاني، عكس العلم الذي زمانه حاضر، مع ذلك فإن المستقبل الذي تعيشه الأيديولوجيا ليس واحدا، فهناك أيديولوجيات تعيش مستقبلها وحلمها في الماضي، وهناك أيديولوجيات تعيش مستقبلها في الآتي، وهذا الصنف الأخير هو وحده الذي يمكن أن يعيش حياة أخرى لأنه هو نفسه نزوع نحو هذه الحياة. (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص54)

من أجل تحقيق هذا الغرض الأيديولوجي المتمثل في تحقيق التنوير والعقلانية في الفكر العربي المعاصر يتعامل الجابري في قراءته للتراث مع مستويين: مستوى التوظيف، ومستوى الاستثمار.

-المستوى الأول: يتطلب استعاب التراث ككل بمختلف منازعه وتياراته ومراحله التاريخية. أما المستوى الثاني: يدعو إلى الاتجاه إلى أعلى مرحلة وقف بها التقدم، يقول الجابري: "بل ما يمكن أن نتعامل معه نحن اليوم من التراث، ليس التراث كما عاشه أجدادنا، وكما تحتفظ به الكتب، بل ما تبقى منه، أي ما بقي منه صالحا لأن يعيش معنا بعض مشاغلنا الراهنة، وقابلا للتطوير والإغناء ليعيش معنا مستقبلنا، وذلك هو معنى الأصالة" (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص53). أي أن الجابري يدعونا إلى البحث في التراث عن جوانب عقلانية يمكن إعادة توظيفها من جديد وفي نفس الاتجاه الذي وظفت فيه والبحث عن طريقة ملائمة للتعامل مع التراث* وبخاصة توظيفه في الحياة الراهنة، فمن الضروري إعادة إحياء الموروث الخالص على مستوى

الفهم. ومنه يمكن القول أن مسألة التراث لا زالت تشغل حيز الفكر العربي المعاصر على أساس ما يجب أخذه وما ينبغي تركه.

إن المضمون الأيدولوجي يختلف عن المحتوى المعرفي كونه له شكل من الأشكال حياة أخرى يظل يحيا على مر الزمن في صور مختلفة، فالفلسفة الإسلامية الجديد فيها يكون على الجانب الأيدولوجي ومن خلال هذا الموقف فمن الطبيعي أن تذوب الفوارق، إذن الحقيقة هنا في الكل وليست الأجزاء إلا تعبيرات وحيدة الجانب عن هذا الكل (العالي، دت، ص 19). فالقراءة التي يدعو إليها الجابري هي قراءة كلية وليست جزئية، قراءة تسعى لاستجابة الوضع الذي تعيشه الذات العربية، إذ لا بد من النظر إلى الفكر النظري في مجتمع معين وزمن معين على أنها تتميز بالوحدة على مستوى الإشكالية، مثلما هو الحال مع إشكالية التوفيق بين النقل والعقل باعتبارها إشكالية أيدولوجية بالأساس .

في نظر الجابري أن المضامين الأيدولوجية التي وظفت المادة المعرفية لا تخضع لتناقضات عكس المادة المعرفية التي نتجت عنها تناقضات، يقول الجابري: "إن المحتوى المعرفي والمضمون الأيدولوجي اللذين يحملهما فكر واحد ليس من الضروري أن يكونا متساويين، أي على درجة واحدة من التطور، بل غالبا ما يكون أحدهما متقدما والآخر متخلفا، وبعبارة أخرى، إن الانتماء إلى الإشكالية وإلى الحقل المعرفي نفسه لا يعني بالضرورة الانخراط في الأيدولوجية نفسها، ولا توظيف المادة المعرفية التي يقدمها ذلك الحقل المعرفي في أغراض أيدولوجية واحدة، بل إن ما يحصل هو أن تحمل المنظومة المعرفية الواحدة، مضامين أيدولوجية مختلفة. "(الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص 34)

يعترف الجابري بأن مجال الإبداع كان محدودا أمام فلاسفة الإسلام، فلم يكن اللاحق منهم يقرأ للسابق حتى يكمله أو يتجاوزه، بل كانوا جميعا يقرأون فلاسفة آخرين هم فلاسفة اليونان (أفلاطون، وأرسطو بكيفية خاصة) مما جعلهم يبدون للناظر إليهم من زاوية المادة المعرفية التي روجوها وكأنهم يكرر بعضهم بعضا .

أما كيف نميز بين هذين الصنفين*؟ وجب الدعوة إلى الرجوع للتاريخ حتى نلاحظ أي الصنفين صالح للبقاء والحياة من جديد وأيهما ما وانتهى إلى الأبد:

*تأريخ المضمون الأيدولوجي لتراثنا الفلسفي كما يفهمه الجابري مر بلحظتين ألغت الثانية منهما الأولى، اللحظة الأولى هي لحظة حلم الفارابي كما عاشه وطوره ابن سينا، واللحظة

الثانية هي لحظة ابن باجة كما طوره ابن رشد، إذا ما تبقى من تراثنا لا ينتمي إلى اللحظة الأولى لأنها خارج التاريخ؛ فالعلاقة بين المرحلتين أي العقل المشرقي والعقل المغربي هي علاقة تتجاوز سواء على المستوى الأيديولوجي أم على مستوى الموضوع والمنهج والرؤية. وبالتالي التراث الذي يصلح أن يعيش معنا في عصرنا والصالح لتوظيفه في حياتنا الفكرية لا يمكن أن يكون إلا رشديا، لأن الرشدية دخلت التاريخ بقطيعتها مع السينوية. أي العودة إلى تراث ابن رشد وإعادة النظر في نصوصه وكتابات من جديد وذلك من خلال إنتاج خطاب حدائي يقوم بمساءلة مفهوم الحاضر. ومنه طرح التساؤل التالي: كيف قرأ الجابري ابن رشد؟

ذلك هو الموضوع الذي تطلب الجابري الاشتغال عليه فأنتج كتابه: "سيرة وفكر" معتبرا إياه خطوة ضرورية في استنبات رشدية عربية إسلامية هي وحدها القادرة على أن تعطي لحياتنا الثقافية ما هي في حاجة إليه من القدرة الذاتية على التصحيح والتجديد (رشد، 1998، ص 11). ونجد في قول الجابري وجه المقارنة بين العقل العربي والعقل الغربي مفسرا معنى استعادة الروح الرشدية حيث يقول: "ونحن حينما ندعو هنا إلى استعادة الروح الرشدية لا نعني أكثر من جعلها حاضرة في فكرنا ونظرتنا وتطلعاتنا بمثل ما هي حاضرة في فكر الفرنسيين الروح الديكارتية، وفي فكر الانجليز الروح التجريبية التي أسسها هيوم" (الجابري، نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، 2018، ص 52)، فالروح الرشدية تدخل التاريخ بقطيعتها مع السينوية، في نظر الجابري يقبلها عصرنا لأنها تلتقي معه في الكثير من الجوانب في العقلانية، وفي الواقعية، النظرة الأكسيومية والتعامل النقدي.

3. خاتمة:

مما تقدم نستشف أن التراث العربي الاسلامي به أهمية بالغة تبدو أنها المناطق الماء ثقافة عربية حديقة ومعاصرة. بل له أهمية في الحفاظ على هوية الذات العربية. وذلك بتشديد حداثة خاصة بنا. حداثة عقلانية متنورة تتماشى مع عصرنا الحالي. إن الحديث عن الإيديولوجي والمعرفي اليوم هو الحديث عن مجموعة من القضايا التي لا يمكن فصلها عن موضوعاتها وعن الإشكالات التي تتمحور في إطار القضايا الكبرى. فالإيديولوجيا تضع الواقع موضع سؤال وتحاول التعبير عن الطموحات الإنسانية تحت ضغوطات أو قيود الواقع إلى تركيب يسمح بتجاوزه.

من خلال الاطلاع على حيثيات واشكاليات الفكر العربي المعاصر يبدو أن هناك نقاط تمفصل أساسية بين التراث العربي الاسلامي والفكر الغربي، وهذه المسلمة يمكن أن تتضح لنا إذا ما نحن قاربنا التدايعات التي آلت إليها عند الكثير من المفكرين أمثال زكي نجيب محمود، عبد الله العروي، محمد أركون محمد عابد الجابري،.... الخ، إذ أن هؤلاء لم يجدوا من محاولة إستحضار الأثر الغربي في بنية التراث العربي الاسلامي، حيث تداعت المشاريع الفكرية التي حمل لواءها جل المفكرين العرب المعاصرين إلى نوع من الردّة إلى التراث بعد أن استنفذوا كل إمكاناتهم في قراءة وفهم حضارة الغرب.

المصادر والمراجع

- الباقي، إ. م. (2010). الخطاب العربي المعاصر - عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية. -الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- الجابري، م. ع. (2015). التراث والحداثة - دراسات ومناقشات. بيروت: دار لبنان.
- الجابري، م. ع. (2016). إشكاليات الفكر العربي المعاصر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجابري، م. ع. (2018). نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجرجاني، ع. ب. (1985). كتاب التعريفات. بيروت: مكتبة لبنان.
- العالي، ع. أ. (د.ت). سياسة التراث دراسات في أعمال محمد جابري. الاردن: دار توبقال.
- الفقيه، ش. (د.ت). الفكر الفلسفي العربي المعاصر، إشكالية التأويل. بيروت: دار البحار.
- الكافي، أ. ع. (2003). معجم مصطلحات العولمة - مصطلحات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية واعلامية .
- المصباحي، م. (1990). مجموعة مؤلفين، الجابري دراسات متباينة. لبنان: جداول النشر.
- النفيسي، ع. أ. (1986). التراث وتحديات العصر. الكويت: شركة الريعان للنشر والتوزيع.
- بلقزيز، ع. أ. (2013). العقلانية والنهضة في مشروع محمد عابد الجابري. بيروت: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية.
- توفيق، ز. (2013). إشكالية التراث في الفكر العربي المعاصر. عمان: دار يافا العلمية للنشر والتوزيع.
- حامد، م. (2017). التراث وإشكالية القطيعة في الفكر الحداثي المغاربي بحث في مواقف الجابري وأركون والعروي. بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.
- حساني، م. م. (2014). الحضارة والحداثة في الفكر العربي المعاصر. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.
- رشد، م. ع. (1998). سيرة وفكر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- زيادة، ر. (2004). إيديولوجيا النهضة في الخطاب العربي المعاصر. بيروت: دار الطليعة.
- سعيد، ج. أ. (2004). معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية. تونس: دار الجنوب للنشر.
- صليب، ج. (1982). المعجم الفلسفي. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- عدي، ي. ب. (2011). قراءات في التجارب الفكرية العربية المعاصرة، رهانات وآفاق. لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

- فاضو، و. (2013). العقلانية والنهضة في مشروع محمد عابد الجابري. لبنان: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها مركز دراسات الوحدة العربية.
- ماننيام، ك. (1980). الأيديولوجيا واليوتوبيا. الكويت: شركة المكتبات الكويتية.
- مذكور، إ. (1983). المعجم الفلسفي. مصر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- موريس، ط. ب. ل. م. (2010). مفاتيح اصطلاحات جديدة - معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع. لبنان: مركز دراسات الوحدة.
- نصارا، ن. (1994). الإيديولوجيا على المحك، فصول جديدة في تحليل الإيديولوجية وتقده. بيروت: دار الطليعة.
- هنري إيكين. (1963). عصر الإيديولوجية. مصر: مكتبة الانجلوا مصرية.
- وهبة، م. (2007). المعجم الفلسفي. القاهرة: دار قباء الحديثة.